Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لهذا كان يصطفي من الألفاظ أدقها تصويراً، وأصدقها تعبيراً ولا يهمه بعد ذلك أن جاءت قوية جزلة أم سهلة لينة، مسجوعة أم مرسلة، موجزة أم مطنبة، وهذا هو سر بلاغته، أفصح عن ذلك بقوله: (. . . فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لصناعة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال) ومن ثمّ كان يقال فيه: (كلامه معان، ومعانيه أحكام) بل كان كما يقول ابو العيناء: (كلامه صريح، ولسانه فصيح، وطبعه صحيح، كأن بيانه لؤلؤ منثور) استمع إليه يقول في وصف صديق له:

إني مخبرك عن صاحب لي كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظمه في عيني، صغر الدنيا في عينه. ، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يتشهّى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً. ، كان لا يأشر عند نعمة. ، ولا يستكين عند مصيبة. ، وكان خارجاً من سلطان لسانه؛ فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما عدم، وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثر دهره صامتاً، فاذا نطق بذّ القائلين، وكان يُرَى ضعيفاً مستضعَفاً، فإذا جدّ الجد فهو الليث عادياً، وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً فَهِماً، وشهوداً عدولاً. وكان لا يلوم أحداً، على ما قد يكول العذر في مثلة، حتى يعلم ما اعتذاره. وكان لا يشكو وجعه إلا إلى من يرجو عنده البرء. ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة وكان لا يتبرّم ولا يتسخّط ولا يتشكى، ولا يتشهى، وكان لا ينقم على الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ـ ولن تطيق ـ ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع[1].

---

(١) الأدب الكبير ص ١٢٩، وزهر الآداب ١/٢٢٤. وقد وردت في نهج البلاغة جـ ٢/١٤٧ منسوبة إلى الإمام علي وفي عيون الأخبار (٢/٣٥٥) منسوبة إلى ابن الحسن، وربما كان ذلك من أثر التشبيع، على أن الفصل في ذلك ليس بالأمر الهين، لأن ابن المقفع كان حقاً مشغوفاً بأسلوب الإمام.